

شهر رمضان.. برنامج تربية وعبادة



رمضان.. والصيام.. والقرآن.. والقيام.. والدعاء.. والإنفاق.. وفعل الخير والمعروف.. والإيثار والتضحية.. أودية وأنهار متعددة كلّها تصب في رافد كبير يتولّى تزكية الإنسان وتطهيره من الأدرار العالقة بوجوده ومسيرته التكاملية في هذا الوجود الفسيح الذي يولد فيه ويراد له أن يتكامل في طرفه الزمكاني. لقد وصف هذا الشهر العظيم بصفات تناسبه إلى أكمل تارة وإلى الإنسان تارة أخرى. فقد وصف بأنه شهر إبراهيم الأكبر كما وصف بأبيه: شهر التوبة وشهر الطهور وشهر الصيام وشهر القيام وشهر الإيمان وشهر التقى وشهر التمحص وشهر الإخلاص. من المعروف إن الإنسان بحاجة ماسة إلى التربية الشاملة والمستمرة مدى الحياة. التربية التي تربطه بالاستمرار وتحقق له حالة الخشية والخوض في تعالي وان هذه التربية إنما تتحقق عبر برنامج شامل لكل مجالات الحياة وكل مراحلها.

وهذا البرنامج التربوي في الإسلام هو برنامج عبادي عام ويتضمن برنامجاً بل عدة برامج عبادية خاصة. والبرنامج العبادي الخاص يتحقق عبر أنواع من العبادات والشعائر التي يعنيها المعبود الحق الذي يعلم من خلق، وكيف يصل ما خلق إلى الأهداف المرجوة والمنظورة من خلقه. فالإنسان الذي يتшوق إلى الكمال ويتطبع إلى السعادة الحقيقية يتطلع إلى البرنامج الإلهي الذي أخبر عنه تعالى في حكم كتابه حين قال: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَ الرَّحْمَنِ وَالْفُرْقَانِ) (البقرة/ 185). وقد قال تعالى عن ما تضمّنه القرآن من الهدى: (إِنَّهُذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْمُتَّقِينَ هُوَ أَقْوَمُ) (الإسراء/ 9). ويعتبر شهر رمضان فصلاً جاماً لأصناف العبادات الخاصة التي تعطي للشهر المبارك طابعاً يتفرد به هذا الشهر عن سائر الشهور. وقد عذر الرسول الأعظم (ص) عن ما تميز به هذا الشهر الفضيل بأبيه شهر "دُعِيتُمْ فِيهِ إِلَى ضيافة إِنَّ كُلَّ الشهور هي شهور إِنَّ الْأَزْمَنةَ هِيَ سِيَّاحَه - إِذْ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ أَوْ شَهْرُ إِنَّ الأَعْظَمَ" بالرغم من أن كل الشهور هي شهور إِنَّ الْأَزْمَنةَ هِيَ سِيَّاحَه - إنما هي باعتبار هذه الإضافة التي تعبر عن خصائص ومميزات لهذا الشهر لا يمكن أن نجد مثيلاً لها في سائر الشهور.

وبما يحمله هذا الشهر من قرب خاص للإنسان تجاه ربّه، وأعمال يقوم بها خالصة لوجهه الكريم، واستيعاب لنشاطات الإنسان المؤمن، وتوجّهه مباشر للإنسان إلى عالم الآخرة، وابتهاه ودعاء وإنابة متواصلة في ليالي هذا الشهر وأيامه وساعاته تصبح كل لحظات الإنسان في هذا الشهر عامرة بالذكر والتسبيح. ومن هنا أصبحت أنفاس المسلمين في أيام هذا الشهر تعدّ تسبيحاً، ونومه يعدّ عبادة، وبذلك تسمى روح المؤمن إلى الملا الأعلى وإلى بارئها سموّاً متميزة بالكيف والكم وانطلاقاً وتحرّراً من عالم المادة إلى عالم المعنى بحيث تكون كل لحظات حياته مستمرة في طريق الكمال إن أراد الإنسان ذلك. ومن هنا كانت هذه الخصائص التي خصّ إِنَّ بها هذا الشهر الكريم وعبدّها فيه تعبيراً عن غذاء روحي وموائد معنوية تتغذى بها روح المؤمن وترتقي بسببيها في سلام الكمال وطريق الخلود. وهذه هي

الضيافة الربانية التي جعلت من هذا الشهر ضيافة خاصة لا نجد مثلاً في سائر الشهور. وقد عبدَ البعض عن هذه الضيافة بـأنها ضيافة الروح لا الجسد، ولكن نعم الحديث النبوى الشريف لا يأبى أن تكون هذه الضيافة شاملة لكل أبعاد وجود الإنسان من دون اختصاص بالروح فقط، وإن كانت الروح هي التي يُراد لها أن ترتقي ولكن عبر الجسد ومن خلال الغرائز والشهوات التي قد زوّد بها وجود هذا الإنسان. ومن إن "الصحة التي جاءت في حديث الرسول (ص) : "صوموا تصحّوا" هي الصحة النفسية والجسدية والعقلية والسلوكية جميعاً . فهي ضيافة شاملة وتكريم خاص للمؤمنين ليتزوجوا من عطاء هذا الشهر زاداً ممتعاً لهم ويستثمروا ما كسبوه فيه لسائر الشهور. فهو محطةٌ تضخِّ المؤمن بالحيوية والنشاط الإيمانى ليعيش في طل بركة هذا الشهر مباركاً وآمناً من الذنوب في سائر شهور السنة.

ومن هنا جعل الله سبحانه للشهر الفضيل برنامجاً يتناغم مع الهدف الكبير في تربية الإنسان تربية نعوذجية تتحقق له كل ما أرد الله من رضا وكمال يكتسيه من خلال المعاشرة الممنهجة في الصيام والقيام وتلاوة القرآن وسائر الأعمال الصالحة التي زاد من قيمتها الطرف الخاص الذي تميز به الشهر الفضيل. القرآن الكريم يعلمنا وكذلك الصيام يعودنا على سلوك إنساني رفيع، وهو غصن البصر عن محارم الله تعالى، فراقب إيها الصائم تصرفاتك في شهر المغفرة، فإنه يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور. أيضاً يتعلم الصائم البعد عن كثرة الكلام، والتقليل من الجدل الكلامي فرمضان فرصة أن يقلل الصائم من حجم الكلام، ويكثر من حجم العمل. من المعاني الجميلة التي يربى الصائم عليها نفسه ويتعاهدها كثرة الاستغفار، وتتجدد التوبة، قال تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ مَن يَشَاءُ إِلَيْهِ مُنْذُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور / 31)، فيعلم الصائم نفسه الانكسار، والخضوع، والافتقار إلى الله تعالى في جميع أحواله وشؤونه، مدركًا أنه يحتاج إلى رحمة الله تعالى، وراجياً أن يتقبل الله توبته، فإذا أردت أن تكون عبداً شكوراً، أكثر من الاستغفار، وجدد التوبة مع الله تعالى في كل يوم لتفوز برضوان الله وحنته.

فالصيام يهدف إلى تقوية الإرادة ليمتلك الإنسان قدرة حماية نفسه من الانزلاق، وهذه الإرادة تعزّز حالة التقوى التي تشمل أعمال الإنسان في حياته، وقوله لعلكم تتقوون، لارتباط التقوى بأداء حق الصيام بالشكل والمضمون الصحيحين. فالصيام يستهدف تزكية النفوس حتى تتقى حرمات الله وتتجنب مطالع العباد وليس الصيام نافعاً ولو لم يؤد إلى التقوى وهي الفائدة الرئيسية التي يغرسها الصيام في النفوس.

فالعبادات شُرعت لتهذيب النفوس، وتربيّة روح المساواة، وروح الاجتماع الذي لا اعتداء فيه، وإذا كانت العبادة لا تتحقق تلك الأهداف، فهي ليست عبادة ولا يقبلها الله - سبحانه وتعالى - الصوم مُهذّب للنفوس ورافع لها من مستوى المادة الضيق إلى مستوى الروح والروحانية الواسع الرحب، الذي إذا طُبِّق حق التطبيق، فإنَّ الإنسان لو صام وأكلَ مال الغير أو اغتاب أو غير ذلك، فلا صوم له.. ويكون مصادقاً لقول النبي (ص) : "كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش".